

الأممية والفلسطينزم: قراءة في التحرر العالمي

إياد البرغوثي

من فلسطين إلى الفلسطينيين: قول في الوعي والمعنى

بيروت، المركز العربي للدراسات والنشر، 2025

300 صفحة (بالعربية)

قراءة: أنمار رفيدي، فلسطين

يطوّر إياد البرغوثي في كتابه من فلسطين إلى الفلسطينيين: قول في الوعي والمعنى مفهوم "الفلسطينزم" كنقيض أخلاقي وفكري للمفهوم الأمريكي والصهيوني الذي يسعى لتشويه الإنسان. وتتوزع فصول الكتاب على ثمانية فصول وخاتمة، كلٌّ منها يفرّد حيزاً محورياً للقضية الفلسطينية، لكنها مُجمّعة تقدّم سرداً لتطور مجموعة من الديناميكيات المعقّدة التي أوصلت القضية الفلسطينية إلى ما هي عليه الآن في العام 2026، والتي يمكنها أن تمهّد لتحوّل على المستوى العالمي بحيث تكون فلسطين محوره.

ينطلق البرغوثي من مفهوم محليّ جغرافياً للقضية الفلسطينية يتجاوز الحدود الوطنية والوجدانية للشعب الفلسطيني ليشمل جميع من يسعون نحو الحرية بحيث تُصبح فلسطين من خلاله معياراً أخلاقياً وإنسانياً وبوصلة تفصل العالم بين "الخير" و"الشر". نجد في صفحات الكتاب باستمرار جدلية بين الشيء ونقيضه، تمهّد للوصول إلى طرفي المعادلة التي على جهة منها فلسطين بوصفها معياراً أخلاقياً عاماً، وأيّ نقيض لهذا المعيار. لا تنبع أهمية الكتاب من كونه يقدم استعراضاً تاريخياً وسياسياً للتحوّلات على المستوى الدولي وكذلك تاريخ الحركة الصهيونية وقضية فلسطين، فهناك وفرة في هذه التقديمات، بل في كونه يعيد قراءة هذه التحوّلات بعلاقتها مع فلسطين، وبموضوعها ضمن مشروع الولايات المتحدة الأمريكية الإمبريالي في المنطقة، والبنى الأخلاقية والفكرية التي تحاول تكريسها وممارستها بحيث يتمّ النظر إلى فلسطين كبوصلة أخلاقية تعيد تعريف المواقف والتحوّلات هذه، بالتالي يُقدم تصوراً مشوّقاً لما تُمثله فلسطين.

يبدأ البرغوثي إعادة قراءة التاريخ ضمن ثنائية الشيء ونقيضه، مستهلاًّ فصله الأول بتحليل منظمة التحرير

الفلسطينية والتحوّلات التي طرأت على دورها عبر محطات مفصلية متعدّدة. فقد تمثّل هدفها الأسمى عند نشأتها في "التحرير"، وكان الكفاح المسلّح أدواتها المركزية لتحقيق هذه الغاية. غير أن الاعتراف الدولي بها، وما رافقه من إدماجها في بنية النظام السياسي الإقليمي والدولي أفضى إلى إزاحة هذا الهدف من موقعه المؤسّس، ودفعها إلى تبني مسار سياسي يختلف جوهرياً عن منطلقها التحزري الأول. وبهذا المعنى، فقد نشأ شرح واضح بين الفكر والممارسة: بين جوهر تحزري يسعى إلى تحرير الأرض ومناهضة الإمبريالية مواجهةً مباشرة وصرحة، ودور جديد تمثّل في البحث عن حلول "ممكنة" لإدارة الصراع ضمن أطر سياسية قائمة، والتعاطي مع المشروع الوطني كملف قابل للتفاوض والتنظيم داخل نظام دولي محدّد الشروط. وهكذا تحوّل المشروع من فعل تحزب جذري إلى إدارة سياسية للصراع، بما حمله ذلك من توتّرات بنيوية بين الغاية الأصلية والأدوات السياسية. وقد أدّى هذا الوضع إلى ولادة جسم مؤسّساتي مشوّه، يتصارع فيه جوهرا: التحزري والسياسي دون إمكانية حقيقية لدمجهما في كيان واحد متماسك. ففي صميم المشروع الفلسطيني، كانت "إسرائيل" تهدف في الأساس إلى محاربة الجوهر التحزري للمنظمة، سعياً لتصفية القضية الفلسطينية بالكامل، مستعينة بالجوهر السياسي للمنظمة لتحقيق هذا الهدف عبر دعم الولايات المتحدة الأمريكية. وسرعان ما أدرك الفلسطينيون هذا التناقض، خصوصاً عندما شرعت المنظمة في البحث عن شرعية من خارج الشعب الذي يفترض بها تمثيله، وهو ما تجسّد في قرار الاعتراف بـ"إسرائيل". ومن هنا، يظهر طرف الخيط الأول لمركزية "إسرائيل"، فيما يسميه البرغوثي الفصل "الأخلاقي" الأول، فالموقف من "إسرائيل" يصبح المعيار الذي يفرّق بين جوهر المنظمة: إما الجوهر التحزري أو الجوهر "المهادن"، وهو الانقسام الذي ينعكس بدوره على طبيعة العلاقات الفلسطينية الداخلية والخارجية مع تقدّم السرد.

في ظل هذه المركزية، والإستراتيجية التي تبناها البرغوثي لتحليل دور "إسرائيل" في خلق التناقضات، يبيّن أن الفلسطينين في هذا السياق، وفي ذلك الوقت، لم يكن قد تبلور لديهم تصوّر وطني إستراتيجي موحّد لمواجهة هذا الصراع المركّب. ففي أيّ محاولة للإصلاح أو الوحدة الوطنية، كانت مصالح "إسرائيل" ورغباتها حاضرة بشكل غير مباشر، وكأن أيّ مشروع للوحدة يُبنى على الموقف من "إسرائيل" وليس من فلسطين نفسها. ومن هذا المنطلق، ينتقد البرغوثي الآلية التي تحوّل عبرها المشروع الفلسطيني من نضال تحزري لتحرير الأرض ومناهضة الاحتلال إلى مشروع دولة أو نظام سياسي، حيث أصبح الحديث عن طبيعة النظام السياسي والامتيازات والمساعدات يغلب على الخطاب، بينما تتراجع المطالب الجوهرية للقضية والحقوق الوطنية. لقد تمّ إعلاء اليومي على حساب الإستراتيجي، الذي يرتبط بالعدالة التاريخية وبهدف هزيمة المشروع الصهيوني. ويشير البرغوثي إلى أن هذا الغياب الإستراتيجي يظّل الخط الناظم الذي يربط مختلف الديناميات المرتبطة بوجود "إسرائيل" ونضالها، ويشكّل الإطار الذي تُفهم من خلاله الانقسامات الداخلية والتحدّيات في البناء الوطني الفلسطيني، وكذلك الانقسامات السياسية على مستوى المنطقة. وبالتالي، يطرح الفصل في نهايته سؤالاً حول ما إذا كانت علاقات القوى وحسابات المصالحية الدولية التي أنتجت "إسرائيل"، أي أمريكا على سبيل المثال، ذاتها من تستطيع خلق كيان فلسطيني يحقّق العدالة التاريخية للفلسطينيين، ليخلص، بطبيعة الحال، إلى أن هذا غير ممكن.

ينطلق البرغوثي في الفصل الثاني ليقدم "إسرائيل" كنموذج للدولة الاستثناء في كل شيء، فلا نشأتها كانت طبيعية، ولا وجودها في المنطقة كان عضويًا، بل إنه وجود مشوّه. ويذهب البرغوثي إلى وصف وجودها بكونه "اللامعقول في ذروة معقوليته، [...] والظلم [أن] يتوّج على قمة العدل" (67). وكرّد فعل على هذا "الاغتراب" تسعى "إسرائيل" للتغلب على هذا الهاجس بفرض نفسها حليفة أمريكا في المنطقة، والفاعل الطبيعي للهيمنة الإمبريالية عليها، تستعرض قوتها وهيمنتها بشكل وحشي دون تردّد. "فممارسة التوحّش والاستثمار فيه، هو الثابت في السلوك 'الإسرائيلي' والصهيوني" (68)، وهي تتباهى بذلك دون اكتراث. حتى من ناحية العلاقات الدولية، فاستثنائيتها تعني أنها لا تريد أن تكون عضواً في التحالفات الدولية، على الرغم من رغبتها في أن تحظى بالامتيازات. تُعادي "إسرائيل" مَنْ تشاء وليس لديها احترام لأيّ أحد، ونجد ذلك في التقليل من شأن الأمم المتحدة، في ميثاقها ومؤسساتها، وتهين العالم جميعاً، وتصف أيّ تعاطف تجاه الفلسطيني "باللا-أخلاقية". ويربط البرغوثي ذلك بالجدال الذي يطرحه في مقدمة الكتاب حول أزمة النظام العالمي وموقع أمريكا و"إسرائيل" منه، ويعتبر أن إهانة "إسرائيل" المستمرة للأمم المتحدة ما هي إلا تعبير "وصل ذروة لا معقوليتها إثر تفرد أمريكا بالهيمنة على العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي" (80).

وفق هذا المنطق، تمتلك "إسرائيل" معيارها الخاص الذي تُشيد على أساسه رؤيتها للعالم، فتعرّف مصالحها باعتبارها مرجعية عليا، وتحدّد من خلالها ما هو "صحيح" أو "خير" وفق تصوّرها الذاتي للأخلاق. وفي هذا السياق، شكّل 7 تشرين الأول / أكتوبر (2023) لحظة كاشفة، إذ ظهرت "إسرائيل" بصورة أقلّ تفوّقاً وصلابة مما رُوّجت له طويلاً، وبهيئة كيان قابل للاهتزاز والانكسار. لقد ضرب "الطوفان" أسطورة "الاستثناء" "الإسرائيلي" في صميمها، وخلخل الصورة التي سعت إلى ترسيخها عن نفسها كـ"ديمقراطية" متفوّدة في المنطقة، وهي صورة لم تكن، في نظر كثيرين، متماسكة أصلاً حتى قبل تلك اللحظة. غير أن ما تعيّر هو أن هذه الصورة وُضعت، ولأول مرّة بهذا الاتساع، على طاولة مساءلة أخلاقية ووجودية بهذا الزخم الإعلامي والسياسي الشعبي على المستوى العالمي. وهكذا، تحوّل الخطاب الدولي من "معقولة إسرائيل" —أي النقاش السياسي والمصالح الذي يُطبع بصورتها ضمن اعتبارات القوة— نحو خطاب يستدعي الضمير والأخلاق معياراً للحكم. وقد أفضى هذا التحوّل إلى خلاصات باتت تشكّك في "أخلاقية" هذا الكيان، واستقطاب حادّ أعاد تقسيم العالم مجدداً بين الشيء ونقيضه، أي بين تصوّرين أخلاقيين متقابلين.

بناءً على ذلك، يرى البرغوثي في أن "الطوفان" فعل كاشف حرّر الوعي بـ"إسرائيل" من طبقات الزيف التي نسجها الخطاب الاستعماري الغربي والصهيوني حولها، لتظهر، بحسب تعبيره، في "قمة لا معقوليتها" (82). لذلك، يعتبر البرغوثي أن المعركة تبدأ في حقل المعرفة، إذ لا يمكن تقويض "الاستثناء" سياسياً قبل تجريده من شرعيته المعرفية والرمزية، وجعله موضوعاً للنقد لا مسلماً به فوق المساءلة، حتى على المستوى المعرفي.

وبالعودة إلى الوجود المُمنهج لـ"إسرائيل" في المنطقة، وجودها ومصالحها وشبكة تفاعلاتها، يلفت البرغوثي إلى أن هذا الحضور لم يكن يوماً عفويًا أو عابراً، بل جاء محبوباً ضمن رؤية إستراتيجية طويلة الأمد. ومن هنا، فإنه يخصّص في الفصلين الثالث والرابع حيزاً واسعاً لنقاش سياسي وأيديولوجي يتناول طبيعة علاقة الأنظمة

والدول العربية بـ"إسرائيل" ودلالاتها البنيوية. ففي الوقت الذي تطوّرت فيه فكرة دولة "إسرائيل" وتكرّست مؤسساتها ضمن مشروع واضح المعالم ومسند دولياً، جاءت نشأة الدول العربية الحديثة على نحوٍ مغاير، إذ تشكّلت في سياق ارتئانها لعلاقتها بالغرب، ولا سيّما بالولايات المتحدة الأمريكية، وتطوّرت بما يخدم مصالح هذا الغرب أكثر مما يخدم مصالحها الذاتية. فهي، وفق هذا الطرح، لم تتبلور "لذاتها" بالمعنى الماركسي، أي بوصفها تعبيراً عن وعيٍ بمصالحها التاريخية والاجتماعية، وما يستتبع ذلك من بناءٍ سياسي ومؤسّسي قادر على حمايتها والدفاع عنها. لذلك يخلص البرغوثي إلى أنها تفتقر، من الناحية الأخلاقية والسياسية معاً، إلى القدرة على إسناد شعوبها أو تمثيلها تمثيلاً فعلياً، لأنها في الأصل لم تنشأ من إرادة هذه الشعوب ولا تعبيراً عن تطلعاتها. وبالتالي، بالنسبة للدول العربية، فهي ليست جزءاً من المنظومة الأخلاقية التي انطلقت من فلسطين، لأنها، ببساطة، على الطرف الآخر من هذه المعادلة.

ينتقل البرغوثي بالموقف الأخلاقي للدول العربية الحديثة وما رافقه من فعل "التخلّي إلى التواطؤ"، بحيث يكون مشروعها الوحيد هو الولاء، فيصبح عندها التطبيع "تأكيداً لانفصالها عن قضايا أمّتها، وابتغاءً لمراضة أميركا" (100). وفي إطارٍ مشابه لجدلوية الاستشراق عند إدوارد سعيد، يُناقش البرغوثي فعل التطبيع بأنه يتجاوز كونه فعلاً سياسياً فحسب إلى كونه انفصالياً ثقافياً عن الوعي والهوية العربية، وإعادة صياغة للوعي والثقافة العربية بما يتلاءم والمصالح والشروط الاستعمارية، إذ تحاول "إسرائيل" فرض مفهومها للشرق الأوسط الجديد على حساب النظام العربي بالأساس [...] ومعها أميركا (ترامب) في كل ما تفعل" (97). ومع ذلك، يُقرُّ البرغوثي بأن وعي النظام العربي لا يتزحزح، بل يعتقد النظام بأن "امتثاله للمطلوب سوف يحميه" (98). أما بالنسبة لـ"إسرائيل" فباللتطبيع العربي تُفكّك عزلة متعدّدة الأبعاد، أهمها الأخلاقية، فهي تندمج في "الشرق" وتقيم علاقات "طبيعية" مع دول المنطقة، وبالتالي تنفي "اللامعقولة" عن ذاتها. ومع ذلك، يفتقر هذا التحليل—العميق، فيما يتعلق بفلسطين—إلى سردية تاريخية لكيف أصبحت هذه الأنظمة على هذا الطرف من النظام العالمي الجديد. وبالتالي، يطرح القارئ هنا تساؤلاً حول ما الذي يفسّر استعداد أنظمة أخرى "لخسارة" بعض الامتيازات المقدّمة في سبيل "ربحها" موقفاً أخلاقياً، مثل دول أمريكا اللاتينية، على خلاف الأنظمة العربية؟

وفي هذا السياق، نلمس تقاطعاً واضحاً مع هذا الطرح، نعي نشأة دولة "إسرائيل"، إذ يقرُّ البرغوثي بأن نشأة الدولة العربية المعاصرة جاءت هي الأخرى نشأةً "غير طبيعية"، حيث تمّ "خلقها في إطار تمزيق الأمة وتفكيكها، بغرض ضمان عدم إعادة تشكّلها والهيمنة عليها"، تماماً كما تمّ العمل على إنشاء دولة "إسرائيل" (105). هوياتياً، عملت هذه الأنظمة على تشكيل وعي أيديولوجي هوياتي منفصل عن كونه امتداداً لهوية عربية أوسع، بل كان انعكاساً للإجابة على سؤال "لمن نتبع؟" يتمّ عبرها "فك الارتباط" مع ثقافة الأمة [...] والمبادئ والمنطلقات التي سبق وأن بُني الموقف التقليدي من القضية الفلسطينية، ومن "إسرائيل" على أساسها [...]. وبناء ثقافة دولتية خاصة بالحالة الجديدة المتمثّلة بالتطبيع" (133). وعلى الرغم من إقراره بأن النظام العربي لا يبدو بأنه مهتّباً لاستثمار هذا اللحظة التاريخية المفصلية، وحتى الشعوب التي نجدها من حيث "الوعي" والمعيّار الأخلاقي تصطّف

إلى الجانب الفلسطيني، فإنّ مصلحتها الحالية هي "العمل الفوري من أجل تحسن وضع [بلدانها] في النظام القادم" (91). ناهيك عن التعارض بين الشعوب والأنظمة، وغياب توجه إستراتيجي واضح لتغيير ما هو قائم، كما هو الحال بالنسبة لافتقار الرؤية الاستراتيجية الفلسطينية في الفصل الأول. فإذا كانت هذه عدسة جديدة لقراءة فلسطين، والتاريخ، والفاعلين العديدين فيها، سيلحظ القارئ أيضاً أنها نقطة يجب استثمارها للمضيّ قدماً نحو التحوّل "النوعي" تكون فيها فلسطين "حجر الزاوية لبناء الشرق المستقر والمعافي والمزدهر" (93).

يعود البرغوثي في هذين الفصلين، الثالث والرابع، ليركّز على "منهجية" اشتغال الغرب في الشرق، بوصفها فعلاً منظماً وممنهجاً لا سلسلة أحداث متفرّقة. فمشروع الغرب، في تصوّره، يقوم على تغيير الشرق رمزياً ومعرفياً، وإخضاعه سياسياً، والاستيلاء على موارده وثرواته. في المقابل، لا يمتلك الشرق، بوصفه كياناً جماعياً، إستراتيجية مضادّة متكاملة لهذا المشروع، ولا حتى رؤية ذاتية مستقلة قادرة على بناء مشروعه بمعزل عن شروط الهيمنة المفروضة عليه. ويعود البرغوثي مجدّداً في هذا الفصل، الخامس، ليركّز على "منهجية" نشاط الغرب في الشرق، إذ يتمثّل مشروع الغرب في تغيير الشرق والهيمنة عليه والاستيلاء على ثرواته، بينما ليس للشرق، بشكل جماعي، إستراتيجية مضادّة لهذا المخطط، أو حتى إستراتيجية ذاتية لإنجاح مشروعه كمشروع بمعزل عن هذا المخطط. وفي هذا الإطار، تحضر "إسرائيل" لا كفاعل منفصل، بل كأداة بنوية ضمن هندسة المشروع الاستعماري الغربي في المنطقة، إذ تؤدّي وظيفة تثبيت الهيمنة الغربية وإدامتها، وتحويلها إلى واقع دائم (150). ومن هنا، ينظر البرغوثي إلى ما يجري في فلسطين بوصفه محور الصراع بين الغرب والشرق، لا باعتباره نزاعاً محلياً معزولاً. ففلسطين، في تصوّره، تقع في صميم الهوية الشرقية التي يسعى الغرب إلى إعادة تشكيلها وإخضاعها. لذلك، يخلص إلى أنه "دون فلسطين مُحرّرة، أو على الأقل فلسطين كحركة تحرر ومقاومة، لا يُبنى مشروع شرقي" (150). يشكّل هذا الفصل بداية لالتقاط رأس الخيط الناظم لمركزية فلسطين كمعيار يفصل الجميع بالظهور، فلسطين و"إسرائيل" كمشروعين متضادّين، ولا مكان للحياد بينهما. وبالطبع، يأتي ذلك جميعه، مجدّداً، في سياق فرض أمريكا هيمنتها بشكل أحادي على النظام العالمي، وتحضر "إسرائيل" في المنطقة كحيز جغرافي سياسي يشكّل المنطقة والامتداد الشرقي من غرب آسيا وصولاً إلى شمال أفريقيا ويفتّت تواصلها، بينما تحافظ فلسطين على هذا التواصل "للشرق" كنعقوض "للشرق الأوسط الجديد" عبر الإمبريالية الثقافية، وهو: "في ذهن أصحابه، يعني جغرافيا جديدة، وديموغرافيا جديدة، وعلاقات دولية جديدة، وسياسات جديدة، ومسلمات جديدة، وثقافة سائدة جديدة، ومناهج تعليمية جديدة. إنه إعادة ترتيب للمنطقة تكون فيها 'إسرائيل' الوحيدة المرشحة للتوسّع، في حين تنقسم الدول العربية الموجودة [...] ويُعمل على تغيير وعيها بذاتها و'إسرائيل' وبعدها البعض وبتاريخها ومعتقداتها وقيمها ورموزها. كل هذا من أجل تسيد 'إسرائيل' للمشهد، واعتبارها مركز الإقليم وروابط علاقته وبوابته للعالم. إنه باختصار تدشين فعلي للإمبراطورية الإسرائيلية" في المنطقة" (155).

وفي وجه هذا المشروع، يعود البرغوثي ويكرّر أن العرب لا يمتلكون أيّ مشروع أو تصوّر لمستقبل "الشرق"، وهذا يُتيح لـ"إسرائيل" التفرّد في صناعة "شرق على مقاسها". وينسحب ذلك على الحاجة لوجود رؤية جمعية تعارض هذا

التصوُّر للشرق وسيطرة الغرب الإمبريالية عليه إذ "يجب على جميع شعوب الشرق [...]، أن تساهم إيجابياً في إنهاء نظام القطب الواحد، وسيطرة الغرب الإمبريالي" (164). وبالتالي ينهي البرغوثي الفصل الخامس، كما أنهى الثاني، بدعوة لمتقفي الشرق، وليس فقط العرب، إلى التقارب السياسي والتمهيد لإستراتيجية تأخذ بمصالح الجماهير الحقيقية عبر دائرة ثقافة أكثر ديمومة، بدلاً من التقرير السياسي السريع، وبلورة مشروع مشترك للمنطقة ككل تكون فلسطين المعيار الأساسي له، يواجه المشروع الغربي الاستعماري لها.

وعلى الرغم من أن هذه الدعوة موجّهة للشرق للاتحاد أمام الغرب، إلا أن القارئ يلاحظ أن مفهومي "الشرق" و"الغرب"، سواء من منظور جغرافي أو ثقافي، قد لا يكونان كافيين لتوصيف الصراع الشامل الذي تخوضه الولايات المتحدة في سعيها للهيمنة العالمية. فالهيمنة، وإن كانت في هذه الحالة بزرع "إسرائيل" في المنطقة، فهي في السياق العام تتجاوز حدود الشرق لتتطال أيضاً أفريقيا وأمريكا اللاتينية، كما اتضح في الشهور الأخيرة من سلوك الإمبريالية الأمريكية تجاه فنزويلا. وبالتالي، وعلى الرغم من أن هذا الفصل يركّز على الصراع ضمن ثنائية الشرق-الغرب، ثقافياً وجغرافياً، بما يشمل محاولات الهيمنة وإعادة إنتاج الوعي والهوية والأيدولوجيا الشرقية، تبرز كذلك إمكانية توسيع هذا المفهوم ليشمل الصراع بين رأس المال، والذي تمثّله أمريكا وبقية العالم الإمبريالي الغربي، أو بمعنى آخر وفق منظور سمير أمين بين المركز والمحيط، حيث يحتلُّ رأس المال، أمريكا (و"إسرائيل") المركز العالمي، وتقع بقية العالم في المحيط التابع، في نظام عالمي يعيد إنتاج اللامساواة والاستغلال بين الطرفين.¹ وهذا الانتقال وتوسُّع الوعي يشمل أنماطاً أخرى، لظالما كانت حاضرة، ولكن تأطرت بشكل أعمق خلال العامين الماضيين، مثل: النضالات ضدّ السياسات النيوليبرالية للإسكان و"الرفاه" في الدول الأوروبية، والاحتجاجات في أمريكا ضدّ التهجير القسري على يد عناصر إدارة الهجرة والجمارك (ICE)، أو تضامن نقابة مطعم "ستاربكس" مع فلسطين. وكما يظهر في الفصلين السابع والثامن، لا يمكن فصل الصهيونية عن الإمبريالية أو رأس المال. فالغرب أيضاً فيه طبقة عاملة، وغيرها من المضطّهدين، تخوض نضالاً ضدّ أنظمة الإنتاج الرأسمالية والإمبريالية.²

يُضيء الفصل السادس بعنوان "الطوفان" وحديث في الوعي والثقافة" على مفصليّة ما جرى يوم 7 تشرين الأول/أكتوبر (2023) من تغيير الوعي، عربياً وعالمياً. ويسرد التاريخ والرواية والهوية والأيدولوجيا الفلسطينية، مُقابل تلك "الإسرائيلية" ابتداءً من نكبة العام 1948، ليُظهر "الكارثة" التي حلّت بالرواية الصهيونية في 7 تشرين الأول/أكتوبر. ففي حين اجتهد الكيان الصهيوني لحبك السردية الأخلاقية لـ"إسرائيلي" المضطّهد البريء منذ ذلك الحين، والتي لم تستطع الرواية الفلسطينية منافستها في استحضار التعاطف العالمي على مستوى واسع، فانقلبت هذه الموازين يوم 7 تشرين الأول/أكتوبر. "أظهر انكشاف 'إسرائيل' مشهد النكبة الحقيقي [...]، ورغبتها واندفاعها لصنع نكبة جديدة" (200). وينقد البرغوثي في هذا السياق المعالجة "العقلانية" لما حدث، وبالتحديد من طرف المثقفين العرب في تعاطيهم مع العامين الماضيين. ولذلك، يقرُّ بأنّ التحرير لا يمكن أن يكون ممكناً دون وعي ثقافي. وبالتالي، لا يمكن للقارئ أن يتناول هذا السجال بوصفه نقاشاً فكرياً معزولاً أو موقفاً أخلاقياً مجرداً، بل ينبغي فهمه ضمن أفق المادية الديالكتيكية التي ترى أن التحوّلات السياسية لا تنفصل عن البنية

المادية والثقافية التي تنتج الوعي. فالوعي، في هذا التصور، ليس عنصراً ثانوياً أو لاحقاً على الفعل السياسي، بل له شرطه وإطاره المحدد، إذ إن إعادة تشكيل البنية الفوقية السياسية تظل رهينة بتحوّل عميق في البنية التحتية الاجتماعية-الثقافية التي تعيد إنتاج أنماط التفكير وتشكّل الوعي الجمعي بالمصالح، والحاجة إلى التغيير.

وهكذا، بحلول الفصل السابع، يحوّر البرغوثي مقولة "الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" اللينينية، ويُعلي الصهيونية على الإمبريالية لتصبح أعلى مراحل الإمبريالية عبر إعادة تتبّع فلسفية وتاريخية متسلسلة للصلة بين نشأة الصهيونية وتطوّر رأس المال، حتى بلوغها طور الهيمنة الإمبريالية. يبدأ البرغوثي أولاً بمقاربة الفاشية والصهيونية، باعتبار الاثنتين منظومتين عنصريتين تستندان إلى التمييز العرقي بين البشر، تستخدمان العنف والإرهاب بلا حدود لتحقيق تفوقهما، وللإفلات من أيّ مساءلة أو محاسبة. ومع ذلك، تتميز الصهيونية بتفوّقها على الفاشية بكونها "ذكية" استطاعت أن تدمج محافظتها مع ليبراليتها، وتدئنها مع علمانيّتها، ولا تخشى توسّع علاقاتها مع الجميع حتى في ظلّ التناقض، فهي حليفة أمريكا والاتحاد السوفيتي في حينها، وتدعم أوكرانيا، وفي الوقت ذاته تتقرّب من روسيا. ويخلص البرغوثي، كما يتكشّف في فصول الكتاب، إلى أن الصهيونية لا يمكن اختزالها في كونها مشروعاً دينياً يهودياً فحسب، بل هي جزء فاعل من منظومة الاستعمار الغربية وشريك فيها، وتجسيد مكثف لأقصى تجلّيات النظام الرأسمالي الإمبريالي.

يتمخّض نقاش الفصول السبعة عن قراءة أخلاقية للعالم عبر الإبادة في قطاع غزة في الفصل الثامن، ويُقرّ البرغوثي أن "غزة تحفّز [...] ضرورة إعادة النظر في كل ما يتعلّق بالغرب وحضارته" في حال رغبتنا في عالم أفضل، مبني على مفاهيم العدل والحق والإنسانية. ويقدم "الفلسطينزم" كأيديولوجيا للتحرر العالمي تأتي في مُقابل أيديولوجيا رأس المال الصهيوني الساعي للهيمنة بالقوة والعنصرية والاستعمار. وبعكس الأيديولوجيا الصهيونية، الوحشية، العنصرية، الظالمة، فالفلسطينزم "تعتمد سمو قيمها وأخلاقها، وتنتشر بمنطقية طرحها وعقلانية أهدافها" (282). وبذلك، فالفلسطينزم هي نقطة انطلاق فكرية "لبناء فكري كوني يشكّل رمزاً لبناء عالمي مختلف قد يأتي" (283).

مروراً بفصول الكتاب جميعها، وتفصيلها الكثيرة، وأمثلتها المتعددة، لا يسع القارئ إلا أن يرى أوجه التشابه بين فلسطين وغيرها من الشعوب، أو لنقل أممية التجربة الفلسطينية. فعلى الرغم من أنّ الكتاب يوضع فلسطين بكونها غدت معياراً أخلاقياً يفصل العالم في آخر عامين، لا يسعنا هنا إلا أن ننظر إلى فلسطين ليس بوصفها "استثناء"، بل امتداداً لهيمنة واسعة. وبالتالي، فإن "الفلسطينزم" قد تخرج من كونها فقط إطاراً يستند إلى التجربة الفلسطينية، بكونها تعالج وتضمّ وتكون نتاجاً لتجربة جماعية تشمل جميع المضطّهدين في سعي أمريكا وتفزّدها في الهيمنة على العالم، وعلى وكلائها الذين يقومون بالنيابة عنها بتحقيق مسعاها. يقوم البرغوثي ببعض الإحالات إلى ذلك في فصوله الأخيرة عندما يُشير إلى حركات التضامن في أوروبا وأمريكا، وظهورها "كقضية كل شعب انتهكت حقوقه، وكل إنسان سُلبت إرادته بشكل أو بآخر" (289). ويُقرّ بأن "هذه الشعوب [لن ترضى] بنظام تتحكّم فيه الولايات المتحدة بهكذا أخلاق بمصير العالم" (268)، وهذه، مجدداً، دعوة للمثقفين لجعل فلسطين محوراً

للنضال لأجل "العدالة والحق والحريّة في العالم" (290). يخلص البرغوثي في النهاية إلى أن الصراع لا ينحصر فقط في الحدود الجغرافية لفلسطين التاريخية بين فلسطين و"إسرائيل"، بل بين الصهيونية بما تمثّله، والفلسطينيّزّم بما تمثّله أيضاً [...] حجم التحدُّل الغربي في الوقوف مع "إسرائيل"، وحجم الانتصار لفلسطين" (290). وبالتالي، يضع الفلسطينيّزّم في مواجهة الهيمنة العالمية للصهيونية. لكن هذا ربما يستدعي تساؤلاً حول الشروط الواجب توفُّرها لتحقيق قدرة الفلسطينيّزّم على الوقوف في وجه الصهيونية العالمية، بما تحمله من قوة مادية وسياسية.

ومع ذلك نجد أنه يمكن توسيع هذا الطرح ومجادلة علاقته بمفهوم "الأممية" التي تطرح كوحدة تحليل في العلاقة بين الاستعمار ورأس المال، من جهة، والشعوب وعموم المظلومين من جانب آخر، ورغبة الأولى في التفرُّد في الهيمنة واستغلال "الأخر"، كما تستدعي ضرورة تحقيق هدفها الأسمى. فأمريكا، بوصفها كياناً رأسمالياً إمبريالياً يتموضع في مركز النظام العالمي، تؤثر في البنية السياسية-الاقتصادية والثقافية-الاجتماعية لمعظم دول العالم، لا في "الشرق" وحده. قد يكون هذا التأثير أكثر عنفاً ووحشيةً في الحالة الفلسطينية، لكنه ليس استثناءً من منطلق عام يحكم العلاقة بين المركز الرأسمالي والأطراف.³ الإطار الأيديولوجي الذي تمثّله الولايات المتحدة، بما يحمله من مرتكزات استعمارية ونيوليبرالية ورأسمالية، لا يعمل فقط عبر الاحتلال المباشر أو الحروب، بل يتجلّى كذلك في سياسات الخصخصة، وتفكيك دولة الرفاه، وإعادة تشكيل الاقتصاديات الوطنية بما يخدم رأس المال العابر للحدود، وفرض أنماط ثقافية ومعيارية تعيد إنتاج الهيمنة بصورة "ناعمة". وإذا كانت الإبادة الجماعية تمثّل أقصى تجليات العنف الإمبريالي، فإنّ ثمة أشكالاً أخرى أقل مباشرة لكنها لا تقل خطورة، نحو: إفقار الشعوب عبر آليات الدّين، وإخضاع القرار السياسي لمراكز القوة المالية، وتكريس التبعية التكنولوجية، وتوسيع الفجوات الطبقيّة داخل المجتمعات نفسها. بهذا المعنى، نحن لسنا أمام قضية محلية أو إقليميّة معزولة، بل أمام بنية هيمنة عالمية تظال الجميع بدرجات متفاوتة. ولعل إدراك هذه الحقيقة يفتح المجال لبناء تضامن عابر للحدود، يقوم على فهم مشترك لطبيعة النظام الرأسمالي العالمي، وللکیفية التي تتقاطع فيها أشكال السيطرة على الشعوب المختلفة ضمن بوتقة واحدة من الهيمنة الأمريكية.

ومع ذلك لا بدّ أن نتذكّر أنّ هذه البنى، بحسب البرغوثي، لا تتنازل دون قوة وعنف، وبالتالي يطرح هذا تساؤلاً لدى القارئ حول الآلية التي يجب أن ننطلق منها نحو هذا النظام العالمي الجديد. وهذا، بطبيعة الحال، ليس انتقاداً للكتاب، إذ قد لا تكون مسؤوليّة الكاتب أن يقدم حلاً، بقدر ما هي دعوة لفتح النقاش حول متطلّبات التحرر أولاً من حيث نطاق فاعليها، وثانياً من حيث البنى الفكرية التحتية لقيادتها، لتحويل هذه البنية التحتية الفكرية الأخلاقية إلى ثورة لتحرير الإنسان. فالمثقف ليس مكوّناً منفصلاً عن المحيط، ولا يجب أن يكون كذلك فقط، بل يجب أن يكون في محور تحديّ أنظمة الظلم والنبذ العالمية وعلاقات القوى⁴

الإحالات

[1] Samir Amin, *Unequal development* (New York: Monthly Review Press, 1976); Samir Amin, "A Note on the Concept of Delinking," *Review (Fernand Braudel Center)*, Vol.10, No. 3 (1987): 435-444.

[2] مهدي عامل، في تمرّح التاريخ (بيروت: دار الفارابي، 2001)؛ مهدي عامل، هل القلب للشرق والعقل للغرب؟ ماركس في اشتراق إدوارد سعيد (بيروت: دار الفارابي، 1985).

[3] Samir Amin, *Unequal development*, op.cit. ; Samir Amin, "A Note..", op.cit.

[4] Edward Said, *Representations of the Intellectual: The 1993 Reith Lectures* (New York: Vintage Books, 1996).